المهاتما غاندي

1869 - 1948

كثير من الظاهرات الإنسانية تتشابه فيما بينها، من دون أن تفقد كل منها خصوصياتها. إلا أن ظاهرة غاندي هي ظاهرة فريدة من نوعها. إنها ظاهرة الهند الفريدة، بل ربما ظاهرة القرن العشرين الفريدة. والأساسي في ظاهرة غاندي يكمن في ثلاثة عناصر وسمات متحدة فيما بينها:

1- شجاعة الرجل واقتحامه الصعوبات الكبرى والثبات في الموقف حتى النهاية.

2- اختياره اللاعنف شكلاً واحداً وثابتاً لتحقيق أهدافه.

3- قدرته على توحيد شعبه بكل مكوناته الإثنية والدينية في النضال حتى تحقيق الإستقلال الكامل للهند.

هذه العناصر والسمات التي توحدت في شخص غاندي هي التي أعطته صفة الظاهرة الفريدة من نوعها. وقد أطلق عليه شعبه لقب "المهاتما"، أي "الروح العظيم"، تقديراً لدوره وتأكيداً لوحدة العناصر والسمات التي أشرت إليها في شخصه كزعيم للشعب الهندي، وكموحد للهند، ومحقق لها استقلالها.

تحول غاندي في آراء كبار المفكرين في مشارق الأرض ومغاربها، بسماته وصفاته تلك، وبسيرته النضالية، إلى ما يشبه القديس. يقول المفكر المصري سلامة موسى عنه في الكتاب الذي كرسه له تحت عنوان "غاندي والحركة الهندية:"يقرأ الإنسان حياة غاندي فيجد في هزائمه وفي انتصاراته ذلك الإسهام الذي يجده في الكتب المقدسة، أو في الأساطير التي أنشأها عظماء الأدباء لكي يرسموا فيها الصور الرافعة للمثل العليا للإنسانية...".

ويضيف سلامة موسى في فصل آخر من كتابه قائلاً: ".. ومحور المقاومة في الهند هو غاندي، أو بكلمة أدق هو 'الغاندية'. ذلك أن غاندي قد أصبح مذهباً وطريقاً وفلسفة ومبادئ..".

أما الأديب الفرنسي رومان رولان فينزع عن غاندي طابع القدسية، في كتابه الذي يحمل عنوان "المهاتما غاندي" الذي نقله إلى العربية الأديب اللبناني عمر فاخوري. لكن رولان يحاول أن يفسر الأسباب التي دعت غاندي لكي يتخذ من اللاعنف مذهباً له. فيدخل في التفاصيل المتصلة بإيمانه الديني، ليس فقط كهندوسي، بل كصاحب إيمان خاص. ويستشهد بآراء له مأخوذة من كتاب مذكراته. يقول رولان في هذا الصدد قبل أن يستشهد بكلام غاندي:"يؤمن غاندي إيماناً صادقاً بدين أمته الهندوسية. لكن إيمانه ليس إيمان عالم متقيد بالنصوص والكتب، ولا هو إيمان تقي ورع يسلم تسليماً أعمى بكل نص منقول. إن عقيدته لفي رتابة مزدوجة من وجدانه ومن عقله". ثم يستشهد رولان بقول غاندي المأخوذ من مذكراته:" لن أجعل من ديني وثناً، وما كنت لأغفي عن أي شر يؤتى باسمه الأُقدس، أو لأجد له عذراً. لا رغبة عندي في أن أقود ورائي رجلاً واحداً إذا كنت عاجزاً عن مخاطبة عقله. بل إني لأذهب حتى إلى رفض ربوبية 'الشاسترا' الأقدمين، إذا كان عقلي لا يؤمن بها ولا يصدقها".

وكان رولان يريد أن يبين أن غاندي كان إنساناً حقيقياً، إنساناً مثل سائر الناس، متميزاً عنهم برجحان عقله، وبإيمانه بقدرة البشر على تحقيق ما يطمحون إليه، إذا ما هم سلكوا الطريق الصحيح، الطريق المفعم بالطابع الإنساني الحقيقي.

ومن طرائف شخصية غاندي أنه التقى في الكثير من مواقفه وآرائه مع الأديب الروسي ليون تولتسوي. كلاهما كانا ضد العنف. إذ اعتبراه، كل منهما على طريقته، كما يقول الأديب المصري فتحي رضوان:" أكبر مصائب الإنسان، وأعظم خطاياه، وأكبر عقبة في سبيل تقدمه وتطوره". وينقل فتحي رضوان في مقال نشرته مجلة "المجلة"، في عددها المكرس للمهاتما غاندي، مقتطفات من رسالة بعث بها تولستوي إلى غاندي. وكانت الرسالة جواباً على رسالة كان قد أرسلها إليه غاندي

مرفقة بنسخة من جريدة كان يطبعها في إحدى المزرعتين اللتين كان قد أنشأهما في "دربن" في جنوب أفريقيا، عندما كان يقيم هناك ويعمل كمحام لتاجر هندي مسلم. وكان قد أطلق على إحدى المزرعتين اسم "تولستوي"، بعد أن قرر اعتماد اللاعنف وسيلة له في النضال دفاعاً عن حقوق شعبه الهندي، وفي النضال لتحقيق استقلال الهند.

يقول تولستوي في رسالته إلى غاندي:" لقد تسلمت جريدتك، وكنت سعيداً بالإطلاع على كل ما يتعلق فيها بالمقاومة السلمية. وشعرت بالرغبة في أن أحدثك عن كل ما أثارته هذه المطالعة من الخواطر.. كلما تقدمت بي الحياة، لا سيما في هذا الوقت بالذات الذي أشعر فيه بقوة بدنوي من الموت، أحببت أن أقول لغيري ما أشعر به بوجه خاص وبوضوح، وما يتخذ أهمية عظيمة، في نظري، وهو ما يسمى بالمقاومة السلبية. وهو في الواقع ليس شيئاً أكثر من الحب الذي لا تفسده الشروح الزائفة. والحب–وهو الجهاد في سبيل وحدة النفوس، وفي سبيل الحيوية الناضجة عن هذه الوحدة–هو القانون الوحيد الأسمى للحياة". ويتابع تولستوي رسالته بعد تقديم شروحات حول المسيحية وحول رسالتها الإنسانية:"الإشتراكية، الشيوعية، الفوضوية، جيش الخلاص، ازدياد الجرائم، البطالة، جنون الرفاهية والثروة المتفاقمة، وشقاء الفقراء، ازدياد حوادث الإنتحار، كل هذه هي علامات التناقض الخالد، الذي يجب أن يحل، لأنه لا يمكن أن يبقى بلا حل ويجب أن يحل بإدراك تام لقانون الحب، ونكران العنف... لذلك فإن حركتك في الترنسفال، كما تبدو لي في الجانب الآخر من الدنيا أعظم عمل سياسي وأعظم أهمية من أي شيء عمل في هذه الدنيا، وستساهم فيه لا الشعوب المسيحية فحسب بل الدنيا".

لكن سيرة غاندي التي بدأت بمعاناته منذ مطالع شبابه، خلال دراسته في لندن، ثم، بشكل خاص، خلال إقامته في جنوب أفريقيا، سيرته الطويلة والمجيدة هذه هي التي تشير إلى أنه كان ظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ الهند وفي تاريخ العالم المعاصر. وهي السيرة التي انتهت بانتصاره في تحقيق الإستقلال للهند، وقادته إلى حتفه على يد مهووس هندوسي، أطلق عليه النار فأرداه شهيداً.

فمن هو غاندي منذ البدايات؟

لنتركه يتحدث هو في مذكراته عن ولادته وعن نشأته الأولى، وعن بداية تكون شخصيته العامة. فليس أصدق منه راوياً لسيرته. يقول غاندي في مطلع مذكراته، في الفصل الأول منها:"... رزق جدي ستة أولاد. تولى آخر اثنين منهم رئاسة الوزارة في بورباندر، واحداً إثر الآخر. وكان أحدهما هو كابا غاندي، أبي. كان عضواً في محكمة راجاستاتك. وكانت المحكمة في تلك الأيام هيئة عظيمة النفوذ لتسوية المنازعات بين الزعماء وبين أخوانهم من رجال القبائل. وتولى أبي رئاسة الوزارة فترة من الزمن في راجكوت... تزوج كابا غاندي 4 مرات. وقد رزق بابنتين من زواجه الأول ومن زواجه الثاني. وأنجبت له زوجته الأخيرة بنتاً وثلاثة صبيان، كنت أنا أصغرهم... كان والدي مخلصاً شجاعاً. لكنه كان حاد الطبع. وقد عرف بالنزاهة في عمله. وكان ولاؤه للدولة ذائع الصيت. ولم يكن عند والدي أيما طموح لجمع الثروة. فترك لنا إرثاً صغيراً جداً. لم تكن له ثقافة ما غير ثقافة الخبرة. لكن تجربته الخصبة في الشؤون العملية أكسبته منزلة محترمة لحل أعقد المسائل وإدارة مئات الرجال. ولم يتلق غير تدريب ديني ضئيل مع ما يكسبه الهندوس لدى سماعهم المواعظ الدينية في الهياكل. كانت أمي عميقة التدين. وكانت تعيش على وجبة واحدة عند ممارسة الصوم. وأحياناً كانت تقوم بنذر يقضي بألا تأكل حتى ترى الشمس. وقليلاً ما كانت تظهر الشمس في فصل

الشتاء، حارمة أمي من وجبة الطعام. كانت أمي، فوق ذلك، ذات معرفة واسعة بشؤون الولاية... ولدت في بورباندر في الثاني من تشرين الأول عام 1869. وأذكر أنني عندما أدخلت إلى المدرسة وجدت صعوبة في حفظ جدول الضرب. الأمر الذي أوحى لأهلي بأن عقلي كان بليداً. أغلب الظن أني كنت في السابعة تقريباً عندما أدخلت في مدرسة أولية، ومنها انتقلت إلى المدرسة الثانوية، بعد أن كنت قد بلغت الثانية عشرة. وأذكر أنني لم أكذب قط، خلال تلك الفترة من دراستي، على مدرسيّ أو على رفاقي. كنت شديد الحياء. فكنت أتجنب الإتصال بأحد. كانت كتبي ودروسي هي رفيقي الأوحد. بل كنت أخشى أن يسخر أحد مني أو يتندر بي. كنت بالفطرة أغفر أخطاء من هم أكبر مني سناً. حتى ذلك المعلم الذي هزء مني أمام رفاقي في المدرسة الثانوية. كنت أكره المطالعة في أي كتاب إضافي، غير كتب المدرسة. وكان عليّ أن أنجز دروسي اليومية لأني أكره أن يوبخني معلمي. كان أتباع الحقيقة هو المثل الأوحد الذي أوحت به إليّ مشاهدتي المتكررة لمسرحية أسرت فؤادي كان والدي يقرأها بكتاب".

ويتابع غاندي رواية سيرته وصولاً إلى المرحلة التي فرض عليه فيها الزواج وهو في سن المراهقة. يقول:" كم كنت أتمنى لو أعفي نفسي من كتابة هذا الفصل. لكنني أعلم أن عليّ أن أبتلع كثيراً من مثل هذه الجرع المريرة خلال هذه الحقبة من حياتي. إن واجبي الأليم يفرض عليّ أن أسجل هنا زواجي في سن الثالثة عشر. وإذ أفكر في ذلك الزواج المبكر أرثي لنفسي وللقدر الذي كتب عليّ في هذا الزواج المنافي للطبيعة وللعقل. علماً بأن والديّ قد خطبا لي ثلاث مرات دون معرفتي. وكان آخرها قبل الزواج، عندما كنت في السابعة من عمري. وكان قرار الأسرة بتزويجي مع أخي الثاني الذي كان يكبرني بسنة واحدة، ومع ابن عمي، دفعة واحدة لا استجابة فيه لرغباتنا، بل الإستجابة لما يلائمهم هم ويلائم جيوبهم.

والزواج عند الهندوس ليس أمراً بسيطاً. إن آباء العروسين كثيراً ما يجلبون الخراب والإفلاس لأنفسهم من كثرة التكاليف والبذخ في الإحتفالات. لذلك كان هذا العرس الثلاثي اختصاراً لهذه الطقوس ولتكاليفها. وهكذا نقلت أنا وأخي من راجكوت إلى بورباتي التي كانت العربات تستغرق خمسة أيام للوصول إليها. فاجتازها أبي في ثلاثة أيام. لكن العربة انقلبت في المرحلة الأخيرة من الرحلة. وتحطمت اهتمامات أبي بالحدث الموشك أن يقع. أما انا فنسيت غمي بسبب جراح والدي، وأنا في غمرة الإبتهاج الصبياني بالفرس وبملابسي وبالفتاة الغريبة التي سألعب معها. ولم أعلم آنذاك بأني سوف أنتقد أبي ذات يوم انتقاداً قاسياً لتزويجي وأنا بعد طفل".

ويسترسل غاندي في سرد تفاصيل سيرته، بالإنتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى. وأنقل فيما يلي مقتطفات من هذه السيرة على لسان صاحبها في مذكراته:"

"في مجتمعنا الهندوسي تستمر الدراسة والزواج جنباً إلى جنب. لذلك كان فشل الكثيرين في الدراسة. أما أنا، فقد واصلت دروسي باجتهاد. بل إنني حصلت على جوائز في السنتين الخامسة والسادسة، وكوفئت بمنحتين دراسيتين. ذلك أن المنح لم تكن ميسرة للجميع. وأذكر أنني لم أقيّم حجم مقدرتي. إذ كنت أندهش كلما فزت بجائزة أو منحة دراسية. قرأت في الكتب كلاماً عن منافع السير الطويل في الهواء الطلق. ولما كانت النصيحة تلك قد راقت لي، فقد مارست عادة التنزه سيراً على القدمين. ولم أقلع عنها حتى الآن. وقد أورثتني هذه العادة بنية قوية إلى حد ما. ثم إنني تحولت إلى دراسة اللغة الفارسية لسهولتها بالنسبة إلى اللغة السنسكريتية. لكن معلم السنسكريتية دعاني ليسألني لماذا لا أتعلم لغة ديني. أخجلني بلطفه. وكنت أحبه وأعترف بجميله. ولو لم أكتسب ذلك القدر القليل من السنسكريتية آنذاك لكان من العسير علي الإهتمام بكتبنا المقدسة.... حتى السادسة عشرة من عمري لم أكن قد تعلمت شيئاً من الدين... ولدت في أسرة تدين بالعقيدة

الفيشنافية. لكني فقدت أي اهتمام بالهيكل، ولم أحب بهرجته وأبهته. وسمعت إشاعات تتحدث عن الأعمال اللاأخلاقية التي تمارس فيه... كانت لأبي علاقات مع جميع الأديان، مما غرس في نفسي تسامحاً مع الأديان جميعها. لكن ذلك لم يعن لي أي إيمان حيّ بالله. بل كنت أميل إلى الإلحاد وإلى الإعتقاد بأن الأخلاق هي أساس الأشياء. وكان مبدأي أن يقابل الشر بالخير...اجتزت امتحان المتريكيوليشن عام 1887. وقصدت مدينة سامالداس لمتابعة دروسي في كليتها. لكنني وجدت نفسي تائهاً، فعدت إلى بلدي. واقترح أحد أصدقاء والدي أن تلتفت الأسرة إلى الإهتمام بتعليمي ما دمت أتابع الدراسة، وأن ألتحق بكلية الحقوق في إنكلترا. فتقرر سفري لأتخرج محامياً بناء على وصية والدي. وبدأت أبني قصوراً في الهواء. استبد القلق بأخي الأكبر حول كيفية تأمين المال لإرسالي إلى لندن، وبأمي خوفاً عليّ. ووعدت أخي بتدبير شيء من المال. واستطعت إقناع أمي بالقبول، بعد أن جعلتني أقسم اليمين أمام الراهب بأن لا أمس الخمر والنساء واللحم... أثناء الإستعداد للسفر، كان جمع من أبناء طبقتي الإجتماعية قد اهتاجوا غضباً، ودعوا إلى محاكمتي بسبب قراري السفر إلى لندن. فلم يسبق لأحد من طائفة "البانيا" أن سافر إلى خارج الهند، فاستحققت العقاب. إذ أن ديننا يحرم السفر إلى ما وراء البحار. إذ سيكون عليّ، ولو مكرهاً، أكل اللحم والشرب مع الأوروبيين. إضافة إلى أن نقاش "الشيث" (رئيس الطائفة) معي بشأن السفر قد أغضبه. فصدر حكم باعتباري "منبوذاً" من الطائفة، ممنوع على أحد أن يكلمني أو يودعني. وانقسمت الطائفة إلى معسكرين. كان فريق منهم يحرم عليّ أن أشرب جرعة ماء في بيوتهم. لم أدر من أين أتتني الشجاعة لمخالفة حكم الشيث. وسافرت بصحبة أحد الأشخاص الذي كان يعتزم تقديم امتحان المحاماة. وكنت ما زلت في الثامنة عشرة من عمري... لقد اجتزت امتحاناتي وفزت بالشهادة في اليوم

العاشر من حزيران عام 1890. وسجلت اسمي في المحكمة العليا في اليوم الحادي عشر. وفي اليوم الثاني عشر أبحرت إلى الوطن. لكن على الرغم من دراستي هذه لم يكن ثمة نهاية لعجزي وخوفي. فأنا لم أشعر بأني كفؤ لممارسة المحاماة... كان يسيراً أن يفوز المرء بشهادة الحقوق. لكن كان من العسير أن يمارس المهنة تحت قوس المحكمة. كنت قرأت القوانين، لكني لم أتعلم كيف أمارس المحاماة. فلم أكن قد تعلمت شيئاً البتة من القانون الهندي. كنت خالي الذهن من الشريعة الهندوسية والشريعة الإسلامية. بل إني لم أكن قد تعلمت كيف أصوغ مرافعة من المرافعات. وحدثت أحد أصدقائي بما أعاني من مصاعب. وحين عرفته بذخيرتي الصغيرة من القراءة أخذته الخيبة. قال لي: " أن مطالعاتك العامة هزيلة. أنت لا تملك أي معرفة بالعالم، المعرفة التي هي ضرورية للمحامي. إنك لم تقرأ تاريخ الهند نفسه. إن على المحامي أن يعرف الطبيعة البشرية وأن يقرأ شخصية المرء من صفحة وجهه. إنك لم تقرأ الكتب عن ثورة 1857. فتعلم ذلك في الحال. واقرأ كتابين في علم الفراسة هما كتابيّ لافيتور و شيملبينك". لقد قرأت كتاب لافيتور فوجدته أصعب من كتاب "العدل". ودرست علم الفراسة عند شكسبير... كان أخي الأكبر قد علق عليّ آمالاً كبيرة لرغبته في الثروة والشهرة. وقد عمل أخي أقصى جهده لإعادة قبولي في الطائفة بعد النزاع الذي سببه سفري إلى إنكلترا. أما أنا فلم ألتمس رضا الفريق الذي حرمني حق انتسابي إلى الطائفة، حتى لا أثير الإنقسامات في الطائفة، أو الإستفزاز أو مقابلة الشر بالشر... كانت صلتي مع زوجتي تتسم بالغيرة، وكنت أسيئ معاملتها. وقد نويت أن أعلمها القراءة والكتابة. لكن شهوتي كانت حائلاً دون ذلك. وكان عليها أن تتحمل قسوتي عليها. وقد رأيت فيما بعد أن كل ذلك كان حماقة مني... في المقابل بدأت علاقتي تتوطد بولدي (وصار في الرابعة) وبابن أخي. الأمر الذي

أفرح أخي. وكان أخي قد هيأ جواً جديداً يتناسب مع كوني عائداً من انكلترا. وأحدثت بعض التغييرات في حياتي، من ضمنها ارتداء اللباس الأوروبي... أما في الحياة العملية، فقد نصحني الأصدقاء أن أتوجه إلى بومباي للتدرب على المهنة في محاكمها. فذهبت إلى بومباي...

في غضون ذلك وصلتني دعوة من إحدى المؤسسات التجارية في دوربان في جنوب أفريقيا تدعوني فيها لأقوم بدور المحامي في قضية أمام المحاكم هناك لصالح شركة دادا عبدالله. كنت أريد أن أغادر الهند بأية طريقة، رغم أن العمل الذي عرض عليّ لم يكن ليرضي طموحي. لكنها كانت فرصة للتعرف على بلاد جديدة والفوز بخبرات جديدة... وبما أنني مكلف بمتابعة الدعوى لجماعة عبدالله فقد كلفت بالذهاب إلى بريتوريا لهذا الغرض. وهكذا كلفت موظفي الشركة أن يشرحوا لي الدعوى. وبدأت أوسع دائرة صداقاتي، فتعرفت على الكثيرين ومنهم بعض الهنود المسيحيين القاطنين في دوربان... اشترى لي عبدالله بطاقة سفر بالقطار في الدرجة الأولى. وطلب مني ألا أقتر على نفسي، "فنحن أغنياء والحمدلله". وفي الطريق في إحدى المحطات تعرض لي أحد المسافرين. رأى أنني رجل ملون وأجلس في الدرجة الأولى، فأزعجه ذلك. فاستعان ببعض الموظفين وطلبوا مني أن أنتقل إلى عربة البضائع. ولم يبالوا ببطاقة الدرجة الأولى التي أحملها. ولما رفضت بعناد، جاء الشرطي الذي استعانوا به ودفعني إلى الخارج. وطرحت أمتعتي خارجاً. كان ذلك في فصل الشتاء وكان البرد قارساً. ماذا أفعل؟ أيتعين علي أن أناضل من أجل حقوقي أم أرجع إلى الهند، أم أمضي إلى بريتوريا متغاضياً عن الإهانات حتى أكمل الدعوى المكلف بها، وأرجع بعدها إلى الهند... أبرقت إلى عبدالله شيت، الذي اتصل بالتجار الذين يعرفهم ليستقبلوني في بريتوريا. وأحدثت هذه الحادثة ضجة كبيرة... كان من الضروري أن أركز نشاطي على

العمل في حقل الخدمة العامة. من أجل ذلك اخترت أن أعمل لتشكيل منظمة دائمة. وقد سميناها "المؤتمر الهندي الناتالي" بموافقة الجميع. لقد كانت ثمرة نشاط الجمعية أن أكسبت الهنود أصدقاء كثيرين في جنوب أفريقيا، وأن حازوا على العطف من جميع الأحزاب في الهند. وقد رسم الهنود الجنوب أفريقيون لهم خطاً محدداً للعمل... إذا كنت وجدت نفسي مستغرقاً في خدمة الجالية، فقد كان السبب وراء ذلك رغبتي في تحقيق الذات. كنت جعلت من الخدمة العامة ديناً لي. إذ شعرت أن الله لايمكن أي يدرك إلا من خلال الخدمة. وكانت الخدمة عندي هي خدمة الهنود. كنت قصدت جنوب أفريقيا لكسب الرزق. لكنني وجدت نفسي أبحث عن الله. كان أصدقائي المسيحيون قد أثاروا شهوتي إلى المعرفة. وهي الصداقة التي أبقت اهتمامي حياً بالدين... وزادت دراساتي احترامي للهندوسية. بيد أنها لم تولد في أي كره للأديان الأخرى... قرأت كتباً عن محمد وخلفائه، وكتاباً عن زرادشت أكسبني معرفة جديدة بالأديان المختلفة. وبدأت أمارس رياضة اليوغا على قدر ما استطعت. كذلك قمت بدراسة عميقة لكتب تولستوي... كنت أستشعر بالولاء للدستور البريطاني. وكنت أشعر أن حبي للحقيقة كان في جذور ذلك الولاء. في ناتال كان النشيد الوطني البريطاني ينشد في كل اجتماع. وكنت أشارك فيه... ما كنت أتغاضى عن مساوئ الحكم البريطاني، لكنني حسبت أنه كان مقبولاً. في تلك الأيام كنت أعتقد أن الحكم البريطاني كان على العموم نافعاً للمحكومين. وحسبت أن التعصب ضد الملونين، ذاك الذي رأيته في جنوب أفريقيا، مناقض للتقاليد البريطانية. واعتقدت بأنه ظاهرة مؤقتة. وهكذا بادلت الإنكليز الولاء للعرش... إن مبدأ ساتياغراها أبصر النور قبل أن يخترع ذلك الاسم. كان واضحاً أن الحاجة تقضي بأن يصوغ الهنود أنفسهم كلمة تجسد نضالهم. لكني لم أوفق إلى صياغة اسم جديد. من أجل ذلك أذعت بواسطة صحيفة "الرأي الهندي"

بأني أقدم جائزة رمزية إلى القارئ الذي يقترح اسماً للحركة. وهكذا أصبحت الكلمة منذ ذلك الحين علماً للنضال. إن تاريخ هذا النضال هو عملياً الجزء الباقي من مقامي في جنوب أفريقيا، لا سيما تاريخ تجاربي مع الحقيقة في تلك الديار. لقد دونت الشطر الأعظم من هذا التاريخ في سجن برافدا. ثم أتممته بعد إطلاق سراحي. ونشر في شكل كتاب فيما بعد... كنت شديد الحرص على الوفاء بنذر البراهماتشارا، فكراً وقولاً وعملاً. كما كنت حريصاً على تخصيص معظم الوقت لنضال اللاعنف، وإعداد نفسي لذلك النضال بتعزيز طهارتها وصفائها. لذا أحدثت تغييرات إضافية لفرض قيود على نفسي في مسألة الطعام. أخذ الصيام وتقييد الغذاء يلعبان دوراً أكبر في حياتي. لقد لقيت مصاعب كثيرة في محاولة السيطرة على الشهوة، وعلى حاسة الذوق. ولست أدعي حتى الآن أني وفقت بشكل كامل. وشرعت أقتصر على غذاء الفاكهة...".

-2-

المقتطفات التي أقتطعتها في القسم الأول في شكل انتقائي من سيرة غاندي بقلمه تقدم صورة واضحة عن التطور الذي كان يحصل في شخصيته، التي صارت فيما بعد ظاهرة الهند الفريدة. وهي الظاهرة التي صار فيها غاندي قائد ثورة كبرى نقلت الهند من وضعها كمستعمرة بريطانية إلى دولة مستقلة، دولة اكتسبت بعد استقلالها دوراً ووزناً كبيرين في العالم المعاصر. ويعود الفضل في تأسيس هذه الدولة إلى غاندي، أولاً، ثم إلى ورثته الكبار وفي المقدمة منهم تلميذه وصديقه ومكمل حركته جواهر لال نهرو.

وقد أرسى غاندي، كما يروي هو بالذات في مذكراته، ووفق تجربته التي كانت تغتني في النضال ، الأسس لمدرسة جديدة من نوعها في الكفاح، هي مدرسة اللاعنف. وإذا كان حزب المؤتمر هو الذي صار، خلال النضال من أجل الإستقلال، أداة غاندي ورفاقه في المعركة، فإن لهذا المؤتمر تاريخاً سابقاً على الدور الذي احتله بعد أن أصبح غاندي زعيمه الأوحد. ومعروف أن حزب المؤتمر كان قد تأسس في عام 1885 بقرار من السلطات الإستعمارية، كلف بتأسيسه موظف بريطاني معروف باسم "هيوم". وكان الغرض من تأسيس هذا الحزب من قبل السلطات الإستعمارية امتصاص السخط الذي كان قد بدأ يظهر في الهند ضد السلطات البريطانية. وكان يشير إلى احتمال وقوع أحداث كبرى، في شكل تمردات وانتفاضات تذكر البريطانيين بثورة عام 1857، الثورة التي شعر فيها البريطانيون بالخطر على وجودهم في الهند كأصحاب سلطة استعمارية.

تسلل غاندي مع أصدقائه إلى حزب المؤتمر بالتدريج، وما لبثوا أن حولوه من حزب في خدمة المستعمرين إلى حزب مكافح ضدهم، مطالب باستقلال الهند. وكانت نقطة الإنطلاق الأساسية التي هيأت الشروط للمعركة الكبرى في عام 1919، العام الذي أعقب انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. ففي ذلك العام بالذات أصدرت السلطات البريطانية قرارات وضعت الشعب الهندي، بصورة أكثر وضوحاً وحزماً، في مواجهتها. هنا، بالذات، جاء دور غاندي، الذي كان قد عاد من جنوب أفريقيا، وعاد من تجربته الكفاحية فيها ضد التمييز العنصري، مع مواطنيه الهنود، الذين كانوا يقيمون في تلك البلاد بأعداد كبيرة، ومع المواطنين السود أصحاب البلاد الأصليين. وكان غاندي، خلال الفترة السابقة على ذلك التاريخ، قد أسس لأسلوبه الجديد في الكفاح القائم على اللاعنف. وكان قد بدأ

يمارس تدريبه على التحرر من الخوف، وعلى الإستعداد للتضحية، على قاعدة اللاعنف.

في شهر فبراير (شباط) من عام 1919 أصدرت السلطات البريطانية سلسلة قوانين تعرف باسم "قوانين الرولات". وهي كانت قرارات جائرة بحق الشعب الهندي، كان الغرض منها الإمساك بالوضع ضد احتمالات قيام تمردات واضطرابات وانتفاضات شعبية. وقد أثارت تلك القوانين غضب الشعب الهندي. وتمثل الرد عليها بإضراب عام شمل الهند كلها. واجتمع الملايين يصلون وينشدون. وخرجت الجموع في مظاهرات ومواكب صامته، تردد التراتيل. أفزعت تلك الحركة البريطانيين، فقرروا مواجهتها بأقصى العنف. وأطلقوا النار بكثافة على الجموع. فلم يتراجع أحد. وظلت المواكب تواصل سيرها برغم القتلى، وكانوا بالمئات، بالطريقة السلمية ذاتها. ويقول المؤرخون بأن ذلك اليوم كان حدثاً فريداً من نوعه، حدثاً بمستوى الأسطورة. ويقول صحفي أميركي شهد الحدث بأن ذلك اليوم كان يوم استقلال الهند. وما جاء بعده في تحقيق الإستقلال الفعلي لم يكن سوى تفاصيل. هزت المجزرة الهند كلها من أقصاها إلى أقصاها. وبدلاً من أن يصيب الهلع الناس من جراء ذلك العمل الوحشي، ازداد إصرارهم على العمل من أجل تحرير الهند من مستبديها. وفي العام الذي تلا المجزرة (1920)، عقد حزب المؤتمر مؤتمره، بعد أن كان قد أصبح بالكامل تحت سيطرة القوى الإستقلالية بقيادة غاندي، ووضع برنامجاً مفصلاً للكفاح من أجل حرية الهند على الأسس والقواعد التي وضعها غاندي. وتحول الحزب إلى قائد حقيقي لكل الشعب الهندي بقومياته وأديانه المختلفة. وانضمت الأقلية الإسلامية إلى الحركة وصارت جزءاً منها.

لم يكن برنامج حزب المؤتمر الذي وضع في ذلك التاريخ يحمل شعار الإستقلال بوضوح. لكنه كان يؤسس لذلك. ولم يصبح شعار الإستقلال شعاراً واضحاً وصريحاً إلا في عام 1929.

أهمية تلك الحركة التي قادها غاندي في ذلك التاريخ أنها وحدت الشعب الهندي، بخلاف ما كان سائداً في الأعوام السابقة على ذلك. إذ كان البريطانيون يعملون على إحداث انقسامات بين الهنود تحت الشعار المعروف "فرق تسد". وكانوا قد أنشأوا في عام 1906 حزباً إسلامياً باسم "العصبة الإسلامية" شجعوا المنتمين إليه على التمايز والإختلاف عن الهندوس. إذ كانوا يزينون لهم بأن المسلمين هم من أهل "الكتاب"، وأن الهندوس هم مشركون، ولا ينتمون إلى أي من الأديان السماوية. وتابع البريطانيون سياستهم تلك حتى في المرحلة التي أعقبت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، وانهيار الخلافة. إذ ظلوا يوهمونهم بأن الخلافة هي مطلب حق بالنسبة للمسلمين. وكان هدفهم من ذلك هو الإبقاء على الإنقسام بين الأكثرية الهندوسية، والأقلية الإسلامية، لتعطيل إمكانية بروز وحدة وطنية هندية في النضال من أجل استقلال الهند. لكن براعة غاندي برزت في ذلك التاريخ بإعلانه تبني حزب المؤتمر مطلب الخلافة. وجعل هذا المطلب جزءاً من برنامج حزب المؤتمر. فانضم المسلمون إلى الحزب بأكثرية كبيرة، وانضم إلى قيادته عدد من قادتهم الكبار. وهكذا أصبح المسلمون جزءاً من الحركة الوطنية الهندية المطالبة باستقلال الهند وبوحدتها، وضد فكرة تقسيمها.

لكن غاندي لم يستطع أن يحافظ على تلك الوحدة خلال الأعوام التي تلت تلك الحركة. وما أن وصل إلى المرحلة الأخيرة من حركته التي قادت الهند إلى استقلالها، حتى كانت قد تكونت لدى المسلمين حركة تطالب بتقسيم الهند إلى دولتين هندية، فيها أقلية مسلمة، وباكستانية للمسلمين ممن اختاروا الإنفصال.

غير أن غاندي، الذي كان في سياساته متسامحاً، وكان ضد الصراعات التي افتعلها البريطانيون والمتطرفون الإسلاميون والهندوس، فإنه لم يلبث، بعد أقل من عام على حصول الهند على استقلالها، أن نال العقاب من متطرف هندوسي. إذ أطلق عليه النار وأرداه قتيلاً. وكان قبل الحصول على الإستقلال، وقبل انفصال باكستان عن الهند، حازماً في موقفه من وحدة الشعب الهندي. ومارس بالصوم، خصوصاً، أياماً طويلة، كشكل من أشكال نضاله السلمي، اعتراضه على الإقتتال بين أبناء شعبه، هندوساً ومسلمين، واعتراضه على سفك الدماء. وكان من بين ما اقترحه عشية الإستقلال، ومنعاً للإنقسام ولانفصال المسلمين عن الهنود، هو أن يتولى منصب رئيس الوزراء لكل الهند أحد زعماء المسلمين. لكن رفيقه في زعامة حزب المؤتمر نهرو اعترض على ذلك، مبرراً اعتراضه بأن ذلك كان سيعمق الإنقسام، وأنه سيترك ردود فعل هندوسية متطرفة، وأن نتائجه المستقبلية ستكون في الإتجاه المعاكس لما كان يفكر به ويحلم المهاتما العظيم.

والجدير بالذكر أن بروز اسم نهرو في مرحلة احتدام النضال من أجل الإستقلال، كان قد شكل إضافة كبيرة إلى دور غاندي. فقد جاء نهرو إلى المعركة الوطنية حاملاً معه أفكاره الإشتراكية التي كان قد تأثر بها خلال فترة وجوده في انكلترا للدراسة. وكانت اشتراكيته تلك، وهي اشتراكية حزب العمال البريطاني، تلتقي في بعض جوانبها مع بعض أفكار غاندي الإنسانية، أفكار العدالة الإجتماعية، وكانت تتعارض مع أفكار غاندي في جوانب أخرى. كان نهرو قد بدأ يصبح رجل دولة، مختلفاً في ذلك عن غاندي، الزعيم الروحي للهند. وكان من أوائل ما قام به نهرو هو إنشاء فرع إشتراكي داخل حزب المؤتمر. وكان الهدف من إنشاء ذلك الفرع الإشتراكي التأكيد من قبل نهرو بأن الإستقلال الوطني هو مرحلة في النضال، تستتبعه بالضرورة حركة إجتماعية ترمي إلى تحرير الإنسان

من الظلم الإجتماعي ومن الإستغلال. وهو ما تعبر عنه أفكار الإشتراكية. وكان غاندي يثق بنهرو. وكان يشجعه على الإستمرار في مواقفه. لذلك فحين طرحت مسألة خلافة غاندي في رئاسة حزب المؤتمر لم يتردد غاندي بالقول بصراحة تامة ومن دون مواربة: "إن خليفتي هو جواهرلال نهرو". وكان يرمي غاندي من اختيار نهرو خليفة له إلى منع وصول المتطرفين الهندوس إلى مواقع القرار بعده. وكان زعيم المتطرفين "راجا صويا الإنكشاري" يقلق غاندي. وقد انشق هذا الأخير عن حزب المؤتمر وشكل حزباً متطرفاً كان من أكثر الأحزاب الهندية رجعية.

ومن طرائف نقاشات غاندي مع الإشتراكيين المتأثرين بأفكار نهرو، ومع الشيوعيين بعد تأسيس حزبهم الشيوعي، أنه كان يقول لهم بأنه، في مواقفه الأساسية، أكثر منهم إشتراكية وشيوعية.

ولقد يكون من المفيد هنا أن نستشهد بكلام عن غاندي، لأنديرا غاندي، إبنة نهرو، التي خلفت والدها في حكم الهند بعد وفاته. ففي كلمات أنديرا إشارات واضحة إلى عدد من المزايا الأساسية التي اتسمت بها شخصية غاندي. وهي أفكار تلقتها أنديرا من والدها نهرو. لذلك فهي أفكار تستحق التوقف عندها.

تقول أنديرا في مقال نشر في مجلة "المجلة" الآنف ذكرها في عددها المكرس للمهاتما:"إن إدراك الفرد لشخصية غاندي ومدى تفهمه لحقيقتها مقياس لما يطرأ على تفكيره من نمو وتطور. فحين كان غاندي حياً كان كثيرون ممن في سني يجدون من الصعب عليهم أن يفهموه، ويضيقون بما كنا نعتبره "بدعاً". كما كانت بعض تعبيراته غامضة بالنسبة إلينا. لقد كنا نسلم جميعاً بقداسته ولكنا كنا نختلف معه في إقحام الغيبيات والروحانيات في أمور السياسة... وهذا القول لم ينطبق على جيلي وحده. فقد وصف أبي في سيرته الذاتية الصعوبة التي كان هو وغيره من أبناء جيله يصادفونها في التوفيق بين آراء غاندي وبين تقديراتهم. على أن

تجارب المد والجزر التي صادفتها حركة الهند الوطنية ساعدت أبي شيئاً فشيئاً على فهم غاندي فهماً أوسع وساعدته على نسج العناصر الأساسية من تفكير غاندي مع عناصر تفكيره في نسيج واحد. لقد نعته أبي بأنه "ساحر". وحاول بإخلاص أن يترجم الآراء الغاندية إلى لغة العصر لكي تكون أكثر قبولاً عند الناس ولكي يمتد أثرها إلى الشباب والمثقفين.. أما غاندي نفسه فلم يكن يتطلب من الناس طاعة عمياء، ولم ينتظر منهم قبول أهدافه ووسائطه دون تفكير أو تمحيص. بل كان يشجع الناس على النقاش ويستحثهم على المحاججة. نعم، فكم من مرة حاججته وأنا بعد فتاة صغيرة. فهو لم ينظر أبداً إلى رأي بسيط على أنه تافه. وكان دائماً يجد من الوقت ما يكرسه لأولئك الذين يختلفون معه في الرأي. وهي صفة نادرة حتى بين قادة الفكر في الهند وغيرها. وهو فوق هذا لم يدّع أن وحياً يهبط عليه، ولم يلجأ يوماً إلى وعد أو وعيد.... لقد حررنا غاندي من الخوف. فإن تحرير البلاد سياسياً لم يكن نهاية الشوط، بل كان أحد المنتجات الفرعية التي تنبعث من تحرر الروح. بل لعل التبدل الذي أحدثه غاندي في مناخ الهند الإجتماعي كان أعظم وأبعد أثراً. لقد حررنا كذلك من القيود التي كانت تفرضها علينا تقاليدنا الإجتماعية. وأزال الحواجز التي كانت تحول دون تقدمنا الإجتماعي. فإلى تسليمه البديهي بالمساواة بين النساء والرجال، بين وضيع المنبت وكريمه في تعبير ذلك الوقت، بين أهل المدن وسكان الريف، يرجع الفضل في اندفاع الجماهير إلى حلبة الحركة الغاندية. لقد ظهر في الهند على مدى تاريخها الطويل مصلحون كثيرون جاهدوا ضد نظام طبقاتها الهرمي، وضد المركز الوضيع الذي كان من حظ المرأة. لكن أحداً منهم لم يستطع أن يكسر حواجز التمييز كما فعل غاندي. وإن نساء الهند لمدينات له بدين خاص من الإعتراف بالجميل، بقدر ما طوق جميله عنق جميع الفئات الأخرى التي تحملت أوضار القيود القديمة ردحاً طويلاً...

لقد كتب غاندي يقول 'لا يقولن أحد أنه من أتباع غاندي. وحسبي أن أكون تابع نفسي. بل إنني أدرك مدى قصوري كتابع لنفسي، لأنني لا أستطيع أن أعيش وفق معتقداتي التي أجاهد من أجلها' .. إن من الغانديين من يريدوننا أن نؤمن بأن غاندي قد أخرج للناس فلسفة عالمية، تحلل كل شيء، وتوفق بين كل شيء، وتصف الدواء لكل ظرف أو طارئ. لكن ما أظلم هذا القول عن رجل لم يدع لنفسه العلم بكل الأمور، ولم يتوقف يوماً عن تجاربه في صدق وإدراك! لقد كان غاندي شخصية متكاملة، لكنه لم يتعامل قط بلغة التعميم والإطلاق الشامل. إن قلة من الرجال المثاليين هم الذين يرونه في مثاليته، وقلة من هؤلاء كانوا أكثر صبغة عملية منه. فلقد كان يضع الحقائق الأساسية أمام الناس، لكنه في كل خطة من خطط العمل التي رسمها كان يسير على مبدأ 'خطوة واحدة تكفيني'..".

يبقى أن أذكّر، من أجل استكمال الصورة عن شخصية هذا القائد التاريخي الأسطوري للشعب الهندي، ببعض مواقفه الفكرية والسياسية والإجتماعية والإنسانية التي وردت في بعض مقالاته وخطبه وفي مواقفه السياسية والفكرية.

طريقته في التفكير: "إنني لا أفكر أبداً يما قد قلته من قبل، عندما أجلس للكتابة. فليس هدفي هو التمسك بموقف وقفته من قبل حول سؤال وجه إليّ، بل أرمي إلى التمسك بالحق، كما يبدو لي في الوقت الحاضر. وكان من نتيجته أنني تطورت تدريجياً من حق إلى حق "أعلى". لذلك فحين أقارن بين ما كتبته قبل نصف قرن، وما أكتبه اليوم، لا أجد أي تعارض بينها. لكن بعض الأصدقاء شاهدوا، في كتاباتي الأخيرة، شيئاً من التعارض، فالأحسن لهم أن يأخذوا ما هو الجديد من آرائي، اللهم إلا إذا كانوا يفضلون الرأي القديم. وعليهم، قبل أن يقع اختيارهم على أحدها، أن يحاولوا كشف رابط دقيق بين الرأيين المتعارضين".

كيف يتبين الحق عنده؟: " إن الحياة معقدة غاية التعقيد، كما أن الحق واللاعنف يسببان مشكلات يتعسر حلها حكماً، ولا يمكن اكتشاف الحق وطريق نشاطه الوحيد (اللاعنف) إلا بعد جهود مضنية وأدعية صامتة. ولا يسعني إلا أن أطمئن الأصدقاء بأنني لا أدخر جهداً لشق طريقي إلى الحق. إن هذا الجهد المستمر المتواصل، وهذه الأدعية الخافتة لهما رفيقاي الوحيدان في مسيرتي المحفوفة بالمخاطر، والتي لا بد من سلوكها لكل الباحثين عن الحق".

الدين والإله: "... هناك قوة غريبة لا يمكنني وصفها كاملة، وهي التي تعم وتشمل كل شيء. إنني أشعر بها دون أن أراها. وهذه القوة هي التي تجعلنا نحس بها، رغم أنها–في نفس الوقت– فوق الأدلة والبراهين، حيث أنها تختلف عن كل ما هو معهود لنا.. حتى أنني لأشعر بها من كل حواس. إنها تلائم العقل، بينما من الممكن أيضاً أن يرفض العقل هذه القوة في مواقف عديدة".

فلسفته السياسية: "إن القوة السياسية لا تعني عندي أكثر من وسيلة في أيدي الناس لتحسين ظروفهم في كل جانب من جوانب الحياة. إن القوة السياسية لا تعدو أن تكون إمكان تحسين الحياة القومية على أيدي مندوبين قوميين. ولو اكتسبت الحياة القومية درجة كبيرة من الكمال حتى تتمكن من إصلاح أخطائها تلقائياً، فلا حاجة حينئذ إلى المندوبين. ففي تلك الحال سيسود حكم "الفوضى المتنورة" (Enlightened Anarchy). وفي هذه الحالة سيحكم كل شخص نفسه بنفسه على حدة. إنه سيحكم نفسه بحيث لا يعوق طريق جاره. فليست هناك، في الدولة المثالية، من "قوة"، حيث أن "الدولة" بمعناها العادي تختفي في تلك الحالة. لكن هذه المثالية لا يمكن تطبيقها كلياً في الحياة. ".

نظرية اللاعنف: "ليس لدي جديد أعلمه للعالم. فالحق وعدم العنف قديمان مثل الجبال على سطح الأرض. إن قصارى ما قمت به لا يتعدى أنني مارست

تجربتهما على أوسع نطاق تمكنت منه. ولم أسلم من الأخطاء وأنا أمارسها. لكني استفدت من أخطائي.. وهكذا أصبحت الحياة ومشكلاتها، بالنسبة إلى ذاتي، مجموعة من التجارب في طريق الحق واللاعنف... وكما قال عني راهب من طائفة "جين"، وكان صائباً في رأيه، أنني لم أكن متحمساً للاعنف قدر تحمسي للحق نفسه. لذلك وضعت الأول موضع الأخير، والأخير في مكان الأول. وسببه يرجع إلى أنني –كما أكد ذلك الراهب– قد قدمت اللاعنف ضحية لأجل الفوز بالحق، والحقيقة أني اكتشفت اللاعنف أثناء بحثي عن الحق".

اللاعنف وتوزيع الأموال: "دعوني أقول أننا لصوص من ناحية.. فإنني لو تناولت شيئاً لا أحتاج إليه في الوقت الحاضر، واحتكرته عندي، كأني سرقته من رجل آخر. دعوني أقول أن هذا هو قانون الطبيعة، بدون استثناء. إن الطبيعة تنتج ما فيه الكفاية لاحتياجاتنا اليومية. فلو أن الكل اقتنى منه ما هو محتاج إليه اليوم، لاختفى الفقر والتسول، ولما كان هناك من يموتون من الفاقة في العالم. وما دام هذا الظلم فيما بيننا، فنحن لصوص. إنني لست من الإشتراكيين، ولا أرغب في تجريد من يملك من أملاكه، ولكنني أقول إن الذين يرغبون في معرفة الحق من الباطل، عليهم اختيار هذا السبيل. لست أريد تجريد أحد من ممتلكاته. وما سلكت هذا السبيل (تجريد الناس من ممتلكاتهم) إلا وقد انحرفت عن طريق اللاعنف. ولو كان أحد يمتلك أكثر مني، فليفعل ذلك. ولكن فيما يتعلق بذاتي. فإني بصدد تأديب نفسي. لذلك لن أدخر شيئاً لست في حاجة إليه. إن هناك ثلاثة ملايين من سكان الهند من لا يرزقون سوى طعام واحد في اليوم، مكون من رغيف وقطعة من الملح، لسد الجوع. ولا نستحق امتلاك شيء مما نملكه الآن، إلا إذا استطعنا أن نطعم ونكسي هؤلاء الثلاثة ملايين من المواطنين الهنود. أنا وأنت، وكل من يرغب في حصول المعرفة العليا، عليه بترتيب قائمة لما هو في حاجة إليه.. بل

علينا كذلك أن نقوم بأداء صوم اختياري، حتى يمكن إطعام وكسوة ورعاية هؤلاء المشرفين على الهلاك".

موقفه من القضية الفلسطينية: "إن الدعوة لإقامة وطن قومي لليهود لا تعجبني كثيراً. إنهم يبحثون عن جواز ذلك في التوراة. وقد زاد إيمانهم به منذ تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين. لماذا لا يتخذ اليهود أوطاناً لهم من الدول التي ولدوا ونشأوا فيها كالأمم الأخرى؟ إن فلسطين للعرب كما أن انكلترا للانكليز، وفرنسا للفرنسيين.. إن تسليط اليهود على العرب بواسطة السلاح هي حركة خاطئة ولا إنسانية... إنها لجريمة أن يقام وطن لليهود في فلسطين أو في جزء منها، من خلال القضاء على العرب. إنه لمن الأفضل أن نضغط على اليهود لكي يبقوا في الدول التي ولدوا ونشأوا فيها. إنني أعتبر اليهود الذين نشأوا في فرنسا كالمسيحيين فيها. ولو كان اليهود يرون أن فلسطين هي وطنهم الوحيد، فهل سيقبلون بنزع انتمائهم إلى البلدان التي يسكنونها، أم يريدون وطنين يسكنون في أيهما كما يشاءون؟ إن الدعوة لإقامة وطن لليهود قد اكتسب "تبريراً مفتعلاً" بسبب الجرائم التي اقترفها هتلر ضدهم".

هذا هو المهاتما غاندي. وهذه هي سيرته. وهذه هي المعاني التي تشير في سيرته إلى كونه تحول إلى ظاهرة فريدة من نوعها في الهند وفي العصر.

كريم مروة